فرانسيسكو سلفادور دانييل نموذجا. ١ - ٢

تاريخ الموسيقى العربية في شمال إفريقيا

من خلال كتابات المستشرقين الفرنسيين في القرن ١٩

من المسلمات في الدراسات التي اهتمت بالموسيقى العربية أن المستشرقين كانوا سباقين إلى طرح قضاياها ومناقشة إشكالياتها. وفي هذا الصدد تسجَّل مبادرتهم المبكرة إلى كتابة تاريخ الموسيقى العربية. وقد توجهت عناية الفرنسيين إلى البحث في الموسيقى العربية بدءًا من أواخر القرن الثامن عشر عندما ظهرت كتابة فيُّوتو Villoteau ضمن كتاب «وصف مصر» الذي اجتمع في تأليفه ثلة من العلماء الفرنسيين أعضاء البعثة العلمية التي رافقت حملة نابليون إلى مصر. وقد تضاعف اهتمام الفرنسيين بالنظر في الموسيقى العربية بعد احتلال الجزائر عام ١٨٣٠.

أ.عبد العزيز ابن عبد الجليل
(المغرب)

من بحوث الملتقى الثاني للمؤرخين الموسيقيين العرب (بتصرف)
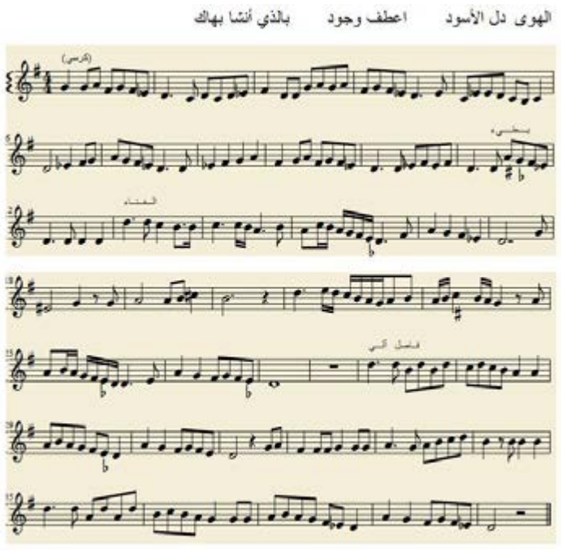
وتكاد موسيقى العرب في الجزيرة الإيبيرية - أو ما سيصطلح على تسميته بالموسيقى الأندلسية - أن تستأثر باهتمام المؤلفين الأجانب، فقد كان نصيبها من كتابات هؤلاء - وخاصة منهم الأوروبيون الإسبان - أعظم بكثير من نصيب الأنماط الموسيقية الأخرى مما هو منتشرٍ في الجزء الغربي من العالم الإسلامي بدءاً من ليبيا شرقا وحتى المناطق الشمالية لشبه الجزيرة الإيبيرية غربا.

وتكمن وراء هذه الحقيقة أسباب متعددة تتأرجح بين ما هو تاريخي محض، وما هو أدبي أو مذهبي وعرقي؛ ومن أبرزها:

- امتداد الفترة الزمنية التي عاشتها هذه الموسيقى منذ ظهرت بوادرها الأولى مع طلائع الفتح العربي للأندلس أواخر القرن الهجري الأول وبدايات القرن الثامن الميلادي، وحتى مطالع القرن الحادي عشر الهجري والقرن السابع عشر الميلادي تاريخ الطرد الجماعي لمن تبقى من موريسكيي شبه الجزيرة الإيبيرية بعد انقراض حكم الإسلام بها. وتمتد هذه الفترة تسعة قرون عرفت فيها الموسيقى الأندلسية عهودا من الازدهار والاكتمال، وأخرى من التفكك والانحلال قبل أن تؤول إلى دول المغرب العربي.

- نشوء الموسيقى الأندلسية على أرض أوروبية حملت الأوروبيين على اعتبارها نتاجا مشتركا بين سكانها الأصليين وبين الفاتحين من جهة، واعتبارها - من وجهة نظرهم - امتدادا

للموسيقى الإغريقية حتى مشارف عصر النهضة الأوروبية.

- اكتمال الصورة الفنية والمقومات البنيوية للموسيقى الأندلسية، مما أصبحت معه تراثا قائم الذات، تميزه عن سائر الممارسات الغنائية والموسيقية التي عرفها الغرب الإسلامي خصوصياتٌ مستقلة.

ومن جهة أخرى فقد بدأ الاهتمام بالأنماط الموسيقية المحلية على إثر التوسع الاستعماري في البلاد العربية، وضمنها بلدان الشمال الإفريقي (تونس والجزائر والمغرب).

ينصب النظر في هذه الدراسة على كتاب «الموسيقى وآلات الموسيقى في المغرب» **Musique et instruments de musique au Maghreb** من تأليف فرانسيسكو سلفادور دانييل **Salvador-Daniel Francesco**

ومؤلف الكتاب من أب موسيقي إسباني، هاجر إلى فرنسا فرارا من أنصار ملك أسبانيا فرديناند السابع. ازداد عام **1831** بمدينة بورج فَوْرَ هجرة والده. ومنها انتقلت الأسرة إلى باريس حيث درس الفتى الموسيقى على والده، ثم التحق بالمعهد الوطني للموسيقى؛ وبعد أن استكمل دراسته لم يكن من السهل أن يجد عملا يضمن له العيش السليم، فمكث لفترة طويلة عاطلا عن العمل إلى أن حصل على وظيفة عازف على الألتو بالمسرح الغنائي إلى جانب المؤلف الفرنسي ديليبس **Delibes**. وتشاء الصدف أن يطلع الفتى على كتابات معاصره فيليسيان دافيد **Félicien David** (1818 -1876) أحد أعضاء «بعثة الأخوة» سنة **1833** إلى تركيا ومصر وفلسطين، ومؤلف «الأغاني الشرقية» و«الصحراء»، فاستهوته هذه الكتابات، ونالت لديه من الإعجاب ما أوثق صلته بصاحبها لدرجة التأثر بأفكاره الثورية واعتناق المذهب الشيوعي. وقد أججت هذه الصحبة في نفسه الشوق إلى الشرق، فَيَمَّمَ شطرَ الجزائر عام **1853** ولم يكن قد مضى على احتلالها من طرف فرنسا غير عقدين ونيف. وهكذا فما أن استقر فرانسيسكو بعاصمة الجزائر حتى أقبل على تعلم لغة البلاد، وربط الصلة بالفنانين، يأخذ عنهم بعض مستعملات النوبة الأندلسية، وألحان الرقصات الشعبية، ويستمع إليهم وهم يغنون ويعزفون ويشاركهم في حفلاتهم بالعزف على الكمان، ثم ولى شطر تونس العاصمة، التي كان «يعتبرها من الناحية الموسيقية بالنسبة لشمال إفريقيا بمثابة إيطاليا بالنسبة لأوروبا»، وحضر مراسم الجوقة النحاسية التابعة لقصر الباي، ومن تونس انتقل إلى الإسكندرية بحثا عن وجوه التثاقف بين أنماط الموسيقى العربية، ثم تحول إلى المغرب، فجزيرة مالطا، فإسبانيا.

وخلال هذه الفترة التي امتدت من **1853** إلى **1865** تهيأ له أن يدون ألحان ما لا يقل عن أربعمائة أغنية شكلت أرضية أبحاثه وهيأت له أن ينجز الدراسات التي هي قوام الكتاب الذي بين أيدينا.

بعد عودة فرانسيسكو إلى باريس، اتجه لنشر أبحاثه في «المجلة الإفريقية»، ثم أسندت إليه إدارة المعهد الوطني للموسيقى، إلا أنه صادف صعوبات جمة بسبب الظروف السياسية التي كانت باريس تعيشها يومئذ، والتي انتهت فيها حياته رميا بالرصاص عام **1871** في أحداث ما عرف ب «الأسبوع الدامي» بسبب أفكاره الثورية ونزعته الشيوعية.

الكتاب

الكتاب عبارة عن مجموعة صغيرة قوامها دراسات ومقالات كتبها فرانسيسكو سلفادور دانييل بين عامي **1856** و**1867** حول الموسيقى في بلاد المغرب. وقد صدر الكتاب غير مكتمل أول مرة عام **1863**، فجاء مذيلا ب «رسالة حول أصل بعض الآلات وتحولاتها»، ثم أعيد طبعه كاملا مرتين بعد وفاة مؤلفه، كانت أولاهما عام **1879**، وكانت الثانية سنة **1886** بعناية المركز الوطني للآداب. وتحتوي هذه الطبعة على **175** صفحة، وهي التي نعتمدها في إنجاز هذه الدراسة.

- سلم طبع الزيدان في الجزائر:
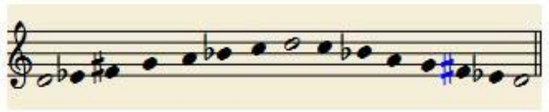
يتصدر الكتابَ تقديمٌ في ثلاث صفحات بقلم ناشره «وهمي ولد أبراهام» استعرض فيه عناوين الكتابات التي أنجزها سلفادور، وختمها بعبارة جاء فيها «أن الكتاب بالرغم من تقادم العهد على محتواه، فهو يقدم صورة مباشرة لما كانت عليه الموسيقى المغاربية في القرن التاسع عشر، وهي صورة سجلها ملاحظ دقيق النظر عن فترة تاريخية لم تكن المجتمعات المغاربية خلالها - بحسب رأي ولد أبراهام - قد عرفت تحولات هامة سواء على صعيد الأسس الاجتماعية أو على مستوى التحولات الأدبية والفنية».

وتأتي بعد هذا التقديم مقالةٌ مطولة قوامها **18** صفحة أنشأها المؤرخ هانري فارمر في يوليوز **1914**، ترجم فيها لسلفادور، فاستعرض - في البدء - مراحل حياته طالبا بباريس، ثم معلما وباحثا في الجزائر، ثم مديرا للمعهد الوطني للموسيقى بباريس،

يتضمن الكتاب ستَّ دراسات هذه عناوينها:

1. «الموسيقى العربية وعلاقاتها مع الموسيقى الإغريقية والغناء الغريغوري». **La Musique Arabe et ses rapports avec la musique Grecque et le chant Grégorien**. وقد سبق نشرها في المجلة الإفريقية عامي **1862** و**1863** في الأعداد من **31** إلى **38** و العدد **40**.

2. دراسة بعنوان «أصل بعض الآلات وتحولاتها» **Essai sur l'origine et la transformation de quelques instruments**. وقد سبق نشرها في المجلة الإسبانية بمدريد «إسبانيا آرتيستيكا» عام **1858** الأعداد **38** - **40** - **44** - **45**، ثم في المجلة الإفريقية عام **1862**.

3. «فهرسة أغاني الموسيقى العربية **Catalogue des morceaux Arabes**»، وعددها يفوق **400**، أكثرُ من نصفها مترجم إلى الفرنسية، وموزع على آلة البيانو أو الأوبوا. وضمنها **15** مدونة من الموسيقى الشعبية.

4 - «مذكرة حول موسيقى القبايل» **Notice sur la musique Kabyle**؛ وقد سبق نشر هذه المذكرة في نهاية كتاب «أشعار شعبية من جرجورة القبايل» **Poésies populaires de la Kabylie du Jurjura –Paris 1867**» بطلب من مؤلفه «أدولف هانوطو» أحد الضباط الفرنسيين بالجزائر (1814 - 1897)، وجاءت مرفقة بخمس عشرة مدونة لأغانٍ شعبية من الموسيقى الجزائرية.

5 ـ «ارتجالات على ناي مزدوج ـ آلة عربية» Fantaisie sur une flute –double – instrument Arabe سبق نشرها في المجلة الإفريقية عام 1866.

6. أغاني الجنس الكابري أو الكَالي«Les chants de la race Cabirique ou Gallique». وهي في الأصل محاضرة كان قد ألقاها أمام أعضاء جمعية مؤلفي الموسيقى.

ويهيمن السرد التاريخي على كتاب فرانسيسكو سلفادور حتى إنه ليكاد أن يكون السمة الغالبة عليه؛ وهو ذاته يؤكد هذه السمة في أكثر من موضع من كتابه، من ذلك قوله مثلا: «على الرغم من أنني لا أنوي كتابة تاريخ الموسيقى العربية فإنني أجد نفسي مضطرا ـ بحكم البحث في هذا الموضوع ـ للنظر في علاقات النظام الموسيقي العربي بنظيره لدى الشعوب التي أثرت في مساره وأوصلته إلى ما هو عليه في الوقت الحاضر».[1] ويقول في موضع آخر: في اعتقادنا أن عملنا هذا لا يخلو من مسائل تاريخية، بل أيضا حفرية موسيقية من شأنها أن تحقق بعض الفائدة...ذلك أن دراسة الماضي كثيرا ما تفتح السبيل إلى معرفة حقيقة الواقع، وتسمح بتصور حدسي للمستقبل.[2].

ونسجل في البدء أن كتابات سلفادور جاءت متأثرة بأفكار معاصره فيليسيان دافيد Félicien David (1818– 1876)، مثلما نسجل أن كتابه لقِيَ فور ظهوره تقدير الأوساط العلمية العنية بموضوعه؛ وقد كان من مظاهر الاحتفاء به أن وافاه حاكم الجزائر الكونت راندون 1795 (Le Conte Randon. 1871) بجائزة نقدية سنية «اعترافا بمساهمته في التعريف بالفنون الإسلامية»، كما أصبح موضع ندوات في المحافل العلمية بفرنسا، وغدا المرجع الأساس في هذا الموضوع، فاعتمده «قاموس الموسيقى»، ونعته أحد النقاد بأنه عمل «نادر المثال».

على أن مضامين كتاباته لم تسلم من شائبة الانتحال التي نابتها من طرف بعض الكتاب المتأخرين، نظرا لوضعيته المأزومة التي كانت سببا في تهميش مؤلفاته وبقائها لفترة طويلة في طي النسيان، ثم بسبب الغموض الذي اكتنف غالب كتابات هذه الفترة حول عموم الموسيقى العربية، ولاسيما موسيقى أقطار المغرب العربي.

وبقطع النظر عن تنوع القضايا التي يتطرق لها المؤلف في هذا الكتاب، فقد كانت مسألة «الموسيقى العربية وعلاقاتها مع الموسيقى الإغريقية والغناء الغريغوري» في مقدمة القضايا التي استأثرت باهتمامه؛ ومن أجل أن ندرك أهمية هذا المسعى لدى مؤلف الكتاب يتعين أن نعلم أن صاحبه لم يكن يقنع بتحديد طبيعة الموسيقى العربية انطلاقا من المؤلفات العربية القديمة فحسب، ولكنه انكب على القيام ببحث ميداني استغرق عدة سنوات على أرض «حظيت ـ من وجهة نظره ـ باحتضان نصيب من تراث فن عرب إسبانيا العظيم، فضلا عن موسيقاها التقليدية»، ومن ثم فقد كانت نظريته على النقيض من نظرية سابقيه من أمثال: لابوردLA Jean Benjamin Borde 1734 ـ 1794 ، وفيُّوتو Villoteau 1759 ـ 1839 وكيزويتيرKiesewetter الذين كانوا يقيمون السلم العربي على 17 درجة، وهي نظرية يذهب فيها إلى القول إن نظام السلم العربي، ولاسيما في بلاد المغرب بشمال إفريقيا شبيه بنظام السلم الإغريقي.

ومن البديهي أن نعلم أن المؤلف ـ وهو يستعمل في سائر فصول كتابه مصطلح «الموسيقى العربية» فإنما يعني حتما موسيقى شعوب المغرب العربي في القرن التاسع عشر (تونس والجزائر والمغرب)، وذلك ما يفسر مخالفته لنظريات المستشرقين السابق ذكرهم ممن عنوا بالنظر في المقامات الموسيقية المشرقية، مثلما يفسر قوله: « إنه لم يلاحظ قط في الموسيقى العربية أي وجود لثلث الدرجة أو ربعها».

وفي توطئته للكتاب يحكي المؤلف كيف أنه لم يكن يسمع في بداية اهتمامه بالموسيقى العربية ـ بعد حلوله بالجزائر. غير ضوضاء خالية من كل لحن أو إيقاع؛ وقد أدرك منذ الوهلة الأولى أنه مقبل على مطلب صعب المنال، وأنه لا سبيل لمن يرغب في تذوق ألحان هذه الموسيقى، والإحساس بتوالي درجات سلالمها وأنصاف درجاتها، وتمييز صنوف إيقاعاتها، ومعرفة مواقع بدايات جملها ومحطات قراراتها إلا عن طريق تربية «الإحساس السمعي»، والتعود المستمر على سماعها، فضلا عن التواصل المباشر مع الموسيقيين الأهالي، وبذلك سيكون في إمكانه أن يصبح ـ على حد قول المؤلف ـ مؤهلا للفوز بنصيبه مما تمنحه الموسيقى العربية من متعة للذين يفهمونها؛ ذلك أن تقييم هذه الموسيقى يقتضي فهمها، مثلما يقتضي تقديرُ القيم الجمالية للغة ما امتلاكَ هذه القيم.

سلم طبع الحجاز المشرقي في المغرب

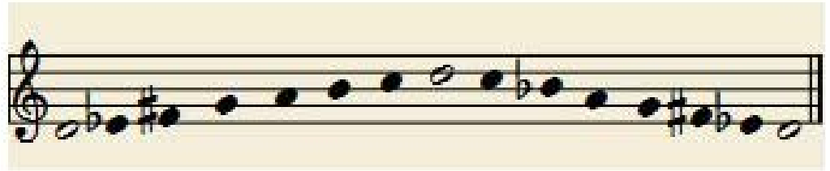

من ميزان بطايحي نوبة الحجاز المشرقي
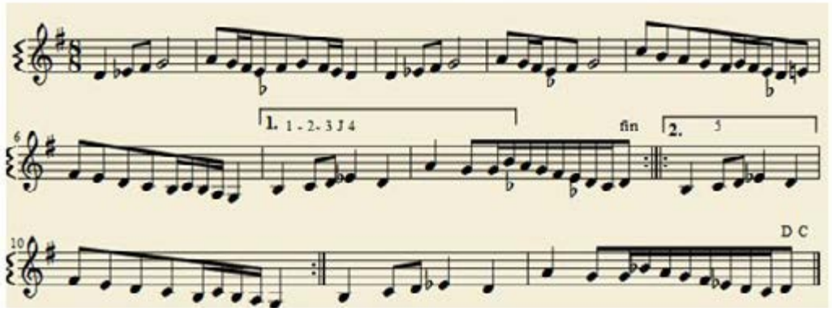
المراجع:

1) فرانسيسكو سالفادور دانييل: Musique et instruments de musique au Maghreb ص 36.

2) المرجع نفسه ص 89.